المجلد (١٠)، العدد (٣٦)، الجزء الأول، مايو ٢٠٢٠، ص ص ١ – ٧

نظرية التدافع
نحو محاولة تنظيرية لفهم وتفسير السلوك الانساني

إعداد

أ.د/ خالد النجار

أستاذ علم النفس ورئيس قسم العلوم النفسية

كلية التربية للطفولة المبكرة جامعة القاهرة

وعضو اللجنة العلمية الدائمة للترقيات بالمجلس الاعلى للجامعات

DOI: 10.12816/0055780

نظرية التدافع
نحو محاولة تنظيرية لفهم وتفسير السلوك الانساني

إعداد

أ.د/ خالد النجار (*)

نقطة البداية:

عشنا عقوداً نشبه الظل، نسير خلف اناس جعلوا منا ظلاً لهم، لم يكن لنا الحق في التفكير أو التأمل أو اتخاذ قرار مهما بلغت درجة أهميته وخصوصيته، وكنا ونحن صغار نجبر على الذهاب الى الكتاب لكي نحفظ القرآن ولأننا كنا نخشى العقاب والضرب فكنا نضرب لكي نحفظ، وكان ثمن الخطأ فادح لايزال بعضه أشبه بالنقش الفرعوني على أجسامنا من شدة الضرب، ولم يسألنا أحد يوماً هل تفهم ما تحفظه؟ وحينما كبرنا كفوا عنا الضرب فنسينا كل ما كنا نحفظه، ويبدو أن قدسية النص تتجلى عند البعض في حفظه فقط وليس محاولة فهمه او تعقله أو تدبره أو تفكره أو العمل به، نعم يبدو أن مرحلة التفكير بالنص تحتاج الى درجة من النضج لا تتاح في مراحل العمر الباكرة، فكم من المرات قرأت في سورة البقرة الآية ٢٥١ قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ صدق الله العظيم... نعم هنا كانت البداية لحالة من التأمل فى هذه الآية الكريمة والتى تبدأ بـ لولا دفع الله... لفسدت الارض وكأن هذا الدفع مشروط بحماية الارض من الفساد وحفظلمية الدائمةها، أي أن هذا الدفع للناس هو الحامي للأرض من الفساد ومن ثم فان التدافع بين الناس يجسد أسمى معاني الايجابية التي تسعي لحفظ الارض وحمايتها من الفساد والمفسدين، كذلك أن التدافع ليس هو الصورة الذهنية لمشهد تدافع الحجيج أثناء أداء فريضة الحج، فتتزاحم الناس فيما بينها ويسقط من يسقط ويصاب من يصاب ويموت من يموت فيصبح التدافع مشهداً مأسويا في أذهان الناس في حين صوره الله عز وجل باعتباره سنة كونية تحفظ وتصون الارض من الفساد.

(*) أستاذ علم النفس ورئيس قسم العلوم النفسية كلية التربية للطفولة المبكرة جامعة القاهرة وعضو اللجنة العلمية الدائمة للترقيات بالمجلس الاعلى للجامعات.

وكانت رحلة البداية بالبحث عن المعني اللغوي للتدافع واعلان عن حالة من التأمل القصوى لمعاني هذه الكلمة في القرآن الكريم وكتب تفسيره والتي وردت عشر مرات فقط لم يستخدم فيها المصدر دفع غير مرتين فقط والباقي مترادفات مشتقة من المصدر وكذلك البحث في الانجيل(*) عن معناها.

اولاً: الـــدفـــع والتـــدافـــع فـى القـــرآن الكـريـــم:

- ﴿وَلَـوْلَا دَفْـعُ اللَّهِ النَّـاسَ بَعْضَـهُمْ بِـبَعْضٍ لَفَسَـدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِـنَّ اللَّهَ ذُو فَضْـلٍ عَلَـى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] (for the) repelling
- ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَـهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] Allah checks
- ﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا﴾ [آل عمران: ١٦٧] Defend
- ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦] You Deliver
- ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦] You Deliver
- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] Then Deliver
- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦] Repel
- ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] Repel
- ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧-٨] Preventer
- ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ، لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١-٢] Any Preventer

(*) وردت كلمة دفع وكل المترادفات المشتقة من المصدر ٢٩٩ مرة في الانجيل بأسفاره ال ٦٦ سواء في العهد القديم ٣٩ او في العهد الجديد ٢٧.

- ان كلمة دفع لم ترد في النص القرآني سوى مرتين فقط، الاول أتى بعمومية اللفظ والمعنى كشرط لحماية الارض وعدم فسادها، منذ أن خلق الله الارض وما عليها وحتى يوم الساعة، أما المعنى الثاني فجاء مشروط بأنه لولا دفع الله الناس لهدمت المعابد والكنائس والمساجد التي يذكر فيها اسم الله، وفي ذلك تصور مماثل لفساد أشد لحال الأرض والناس بعد أن هدمت الأديان.
- كشف البحث عن المعنى في اللغة العربية يأنه يقوم على وحدة التشابة في المصدر وانطلاقا الى كم كبير من المترادفات التى تحقق معاني كثيرة ومتعددة، بينما المعنى في اللغة الانجليزية بقوم على الاختلاف في المعنى فنجد على سبيل المثال دفع تعنى Push – Pay – Defend – Repel – Prevent وكلها معاني لايوجد بينها أي تشابه على الاطلاق وهو الأمر الذي يدفعنا الى أستنتاج مؤداه أن مفهوم التدافع بما يتضمنه من ثراء في المعنى والمضمون لا يمكن أن نجد ما يقابله عند البحث عنه في اللغة الانجليزية حتى أن مفهوم التدافع بكل ثراءه ومعانيه التي كشف عنها البحث في المعاجم اللغوية العربية لا يوجد ما يوازيه في المعني في اللغة الانجليزية ولا توجد كلمة انجليزية تعبر عن ثراء هذا المعنى الذي جاء في اللغة العربية، وهو الامر الذي يجعلنا نستنتج أن هذا المعني للتدافع لم يرد جملة ولا تفصيلا في التراث العلمي الاجنبي في مجال العلوم الانسانية أو غيرها.

تعتبر سنة التدافع أحد السنن الكونية، فالله تعالى فطر الأشياء والنفوس والمجتمعات والمجالات على طبائع عدة وبث في الكون سننًا ونواميس تحكم كل ما فيه وتحدد اتجاهاته وعلاقاته وردود أفعاله، فالكون قائم على مبدأ الزوجية "ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون" وهذه الزوجية دليل على وحدانية الخالق، فإنها أيضًا مصدر للمدافعة لأن الزوجية تقوم على المغايرة والاختلاف، ولعلنا نجد هذا الاختلاف بين الرجل وزوجه رغم ما تجمعهم مصالح مشتركة، وحياة مفعمة بالحب والتقدير فيتولد بينهم نوع من الصراع والتدافع الذي

ينتهي بنوع من التكامل والتعاون، ونطاق هذا التدافع أكبر من مجرد إنسان مع آخر، أو قل تقلبات حياة الإنسان ذاته، لتصل هذه المدافعة إلى مجموعات أو شعوب، أو تحالفات، تبرز جوانب من التوافق والاختلاف، اختلاف على صعيد العواطف والأمزجة والأهواء والرؤية والفهم والتقدير والمعرفة والخبرة والأهداف والغايات واختلاف على صعيد المصالح والمنافع، وهذا التدافع هو شيء ضروري لاستقامة الحياة والبعد عن الشطط، ومصدر لدرء الشر وتحجيمه إلى أدنى حد ممكن، بالإضافة إلى أنه عامل نماء وارتقاء.

وقصارى القول أنه لابد للتدافع اذن من أن يتسم بالخصائص الثلاث الآتية: "الكلية، والتحولات، والتنظيم الذاتي".

والمقصود بالسمة الأولى من هذه السمات – ألا وهى الكلية Totality – هو أن "التدافع "نسق". ولا ترتد قوانين تركيب هذا النسق إلى "ارتباطات تراكمية"، بل هي تضفي على "الكل" من حيث هو "العلاقات" القائمة بين العناصر، أعنى عمليات التأليف "أو التكوين"، على اعتبار أن "الكل" ليس إلا الناتج المترتب على تلك "العلاقات" أو "التأليفات"، مع ملاحظة أن قانون هذه العلاقات ليس إلا قانون "النسق" نفسه، أو "المنظومة" نفسها.

وأما المقصود بالسمة الثانية – ألا وهي التحولات Transformations – فهو أن "المجاميع الكلية" تنطوي على ديناميكية ذاتية، تتألف من سلسلة من التغيرات الداخلية التي تحدث داخل "النسق" أو "المنظومة"، دون التوقف على أية عوامل خارجية. وليس الحديث عن ضرب من "التوازن الكوني" سوى تعبير عن هذه الحقيقة الهامة ألا وهى أن "التدافع" حالة من نفي السكون المطلق في كل أحواله وأشكاله. بل هى تقبل دائم من "التغيرات" ما يتفق مع الحاجات المحددة من قبل "علاقات" النسق و"تعارضاته "فكل شيء في طريقه لكى يصبح شيئ آخر، فلا صمت ولا سكون في الرحلة ما بين الحياة والموت، ولا صمت ولا سكون في حالة الصراع التي تحكم حركة الكون وتفاعلاته. صحيح – فيما يقول بياجيه – أن الحلم الأكبر للكثير من "البنيويين" هو تثبيت "فالتدافعات" حالة لا زمانية شبيهة بدعائم

الانظمة المنطقية – الرياضية، ولكن من المؤكد أن ثمة علاقة متينة بين مفهوم "التدافع" ومفهوم "التغير"،.

وأما المقصود بالسمة الثالثة – ألا وهي "التنظيم الذاتي" – فهو أن في وسع "البنيات التدافعية " تنظيم نفسها بنفسها، مما يحفظ لها وحدتها، ويكفل لها المحافظة على بقائها، ويحقق لها ضربا من "الانغلاق الذاتي". ومعنى هذا أن للتدافعات قوانينها الخاصة التي لا تجعل منها مجرد "مجموعات" ناتجة عن تراكمات عرضية، أو ناجمة عن تلاقي بعض العوامل الخارجية المستقلة عنها، بل هى "أنساق" مترابطة، تنظم ذاتها، سائرة في ذلك على نهج مرسوم وفقا لعمليات منتظمة، ألا وهي قوانين "الكل" الخاص بهذه "البنية" أو تلك. وعلى الرغم من أن كل "بنية من التدافع" مغلقة على ذاتها، إلا أن هذا "الانغلاق" لا يمنع "البنية" الواحدة من أن تندرج تحت "بنية" أخرى أوسع، على صورة "بنية سفلية" "أو تحتية". كأن نتحدث عن التدافع السياسي أو التدافع الاقتصادي أو التدافع الاجتماعي أو النفسي أو الاعلامي وهكذا.. والمهم أن عملية "التنظيم الذاتي" لابد من أن تتجلى على شكل "إيقاعات"، و"تنظيمات"، و"عمليات"؛ وهذه كلها عبارة عن "آليات بنيوية"، تضمن للبنيات ضربا من الاستمرار للمحافظة على سنة الكون الدافعة نحو التقدم والتغير والنماء.

فالتدافع هو الصيرورة التي توجه التفاعل بين القوى المتعددة بحيث يؤثر كل منهما في الاخر ويتأثر به سلباً أو ايجاباً وذلك بصورة مستمرة ومتتابعة تسهم في تحقيق التوازن بينها وتنتهي بظهور بعضها واختفاء البعض الاخر، فالتدافع يحقق التعادل بين قوى الخير فيما بينها وكذلك بين قوى الشر فيما بينها وتأخذ كل قوى محلها ومكانها تحقيقاً للتوازن في العلاقة بين المتضادات نحو التصادم والتصارع، حيث تنقضي بعض هذه القوى في عملية التدافع وتبرز قوى أخرى فتكون لها السبق والريادة والظهور والسيطرة انتظاراً لقوي أخرى تحل محلها وتلعب دورها وهكذا دواليك ليستمر التوازن قائما في فاعلية قدرة وسنة التدافع بين الناس لكي تستمر الحياة.

التدافع هو حالة سعي مطلق نحو تحقيق الاهداف بغض النظر عن سعي الآخرين نحو تحقيق أهداف ولا يتطلب الموقف عداء أو إقصاء أو العدوان أو تدمير للآخرين، كما أن التدافع لا ينصب ولا يركز على موقف وانما هو حالة عامة لتحقيق الاهداف والنجاح والانجاز والنماء والرخاء للفرد والمجتمع.

كما يجب الاشارة الى أن التدافع قد يكون من بين آلياته التنافس بالمعنى الايجابي، حيث أن التنافس الذي لا يستهدف تدمير او اضعاف او إفشال الاخرين، فالتنافس في حد ذاته بعيداً عن التركيز على استهداف الآخرين هو محرك من محركات التدافع بين الناس حيث يقوم كل فرد وكل جماعة نحو تحقيق أهدافها وتسخير كل طاقاتها وامكانياتها وقدراتها للسبق في تحقيق ما تسعى اليه بعيدا عن سعي الآخرين نحو تحقيق أهدافهم وهذا هو التدافع الايجابي على المستوى الفردي أو الجماعي، ومثال على ذلك حين نجد طالب يسعى للتفوق من أجل التعيين كمعيد في الكلية بغض النظر عن سعي زملاءه لتحقيق نفس الهدف، فنجده يوظف ويسخر كل امكانياته وقدراته لتحقيق هدفه دون الحاجة الي إعاقة أو تدمير وإفشال الآخرين نحو تحقيق نفس الهدف، وهذا هو التدافع الايجابي.

ومن هذا المنطلق يقدم الباحث رؤيته في محاولة تنظيرية للتدافع في محاولة فهم وتفسير السلوك الانساني ويقدم المحددات التي تحكمه وكذلك تمايزه واختلافه عن العديد من المفاهيم مثل التفاعل الاجتماعي والصراع والتنافس والدافعية، كما حاول الباحث تقديم رؤية عن علاقة التدافع ببعض فروع علم النفس المختلفة وكذلك نظريات علم النفس وتقديم أمثلة عديدة لأشكال التدافع مثل التدافع السياسي والتدافع الاقتصادي والتدافع التعليمي والمهني والتدافع التكنولوجي، وقدم الباحث عرضاً تفصيلياً لمفهوم التدافع في ضوء نظريات علم النفس وتطبيقاته في العديد من فروع العلوم المختلفة واخيرا قدم الباحث رؤية عن التدافع الايجابي والتدافع السلبي الذي يفسر قطاعات كبيرة من السلوك الانساني وانتهي العرض بتقديم مفهوم اضطرابات التدافع حيث تم تفسير الامراض والاضطرابات النفسية والعقلية وكذلك الاعاقات المختلفة باعتبارها أشكال لاضطرابات التدافع.

وفي الختام لا يخفى عن كل متأمل ومدقق في تاريخ تطور العلوم الانسانية بصفة عامة وعلم النفس بشكل خاص في العالم العربي، أنها قد تمر بأزمة، وكغيرها من فروع المعرفة نرى أنها الان وبعد التخلي النسبي عن الفلسفة قد أصبحت أسيرة لجملة البرامج والأدوات التي طغت على النظريات وصياغة المفاهيم وبات الانسان يبحث في النماذج البنائية عن مهاراته وقدراته في التطبيق أكثر من البحث عن تحقيق أهداف العلم في الفهم والتفسير وباتت لغة الارقام (الاحصاء) عمليات تفسر نفسها أكثر ما تفسر الواقع المعاش، واصبحنا في حالة تلقي سلبي لكل ما هو أجنبي من نظريات ومفاهيم واستراتيجيات وبرامج وأدوات حتى أننا لم نعد نشارك في انتاج المعرفة العلمية العالمية.